المستوى الدلالي للون في شعر عنترة

د. خليل عودة

كلية الأداب - جامعة النجاح الوطنية - نابلس

ملخص البحث: يتناول البحث دراسة موضوع الألوان في شعر عنترة، وعلاقة هذه الألوان بذات الشاعر، وقد تبين من خلال البحث أن أكثر الألوان استخداماً في شعره الأسود فالأبيض، وقد يتبادر الى الذهن أن الشاعر لاعتبارات ذاتية كان يمكن أن يتغاضى عن ذكر هذين اللونين في شعره، ولكنه على عكس مايتوقع القاريء، فقد أكثر من ذكرهما والحديث عنهما، وهو بذلك لايهرب من المشكلة الأساسية التي تواجهه في حياته، وهي عقدة اللون، وإنما يحاول أن يتصدى لها ويواجهها، للتغلب عليها، من خلال طرحها وفق معايير اجتماعية، وقيم خلقية، تجعل من اللون الأسود كما الأبيض، أمرًا مقبولاً على المستويين الشخصي والاجتماعي.

وهو يعتمد في ذلك كله أسلوب الحوار والإقناع، ويلجأ إلى فلسفة الأمور وفق مفاهيم منطقية، تجعل له قدرة على امتلاك زمام الأمور والوصول إلى النتائج التي يريدها، فالسواد لايعيب صاحبه، لأنه لايتنافي (بذاته) مع القيم والأخلاق، كما أن البياض لايعطي أفضلية لصاحبه لأنه يتوافق (بذاته) مع القيم والأخلاق.

والأفضلية في ذلك كله تعود إلى فعال الشخص ومعاملته وسلوكه، والشاعر بذلك يعطي مفارقة واضحة بين الشكل والجوهر، وهي مفارقة غير مطروحة على المستوى الاجتماعي، لكنه حاول من خلال أسلوبه الشعري، وحسن استغلاله للون أن يعدل الموازين القائمة بين فهمه وفهم مجتمعه للعلاقات الإنسانية المتبادلة، وفق مباديء إنسانية، وليس وفق مظاهر شكلية يؤمن بها المجتمع، ويعطيها شيئاً من القداسة.

دلالة اللون في المجتمع الجاهلي:

الإحساس باللون عند الشاعر الجاهلي، له دلالة نفسية تعكس مواقفه من قضايا خاصة لها علاقتها المباشرة أو غير المباشرة بواقعه الاجتماعي والسياسي، فهو عندما يستخدم لوناً معيناً في شعره، ويكرره بشكل يظهر تميزاً أسلوبياً في عمله الفني، يعكس بذلك علاقات مختلفة ترتبط بمواقف معينة تثير في نفسه هذا الاستخدام اللغوي، وتجعل له خصوصية على مستوى التعبير، وقد تعكس وجهة نظر خاصة بالشاعر، أو رؤية ذاتية يحاول أن يصلها بعالم الحس من خلال اللون الذي يقدم إيحاءات فلسفية، أو مواقف ذاتيه تعبر عن معان خاصه به يتمثلها، ويحاول من خلالها ترسيخ وجهة نظره في قضايا لها علاقة بحياته، "والشاعر الجاهلي كلف بالألوان، وأكثر الألوان ورودا هو اللون الأبيض ثم الأسود فالأخضر فالأحمر، ويحب الشاعر الجاهلي مزج الألوان المتناقضة كالأبيض والأسود، والألوان المنسجمة كالأبيض والأصفر أو الأبيض والأحمر"[1] ولايعني هذا أنه يحب ذكر الألوان في شعره لغاية تتصل بإيحاءات شكلية تجعله كلفا بهذا اللون أو ذاك، وإنما يسقط على اللون مافي نفسه من معان، تجعله يكرر استخدام لون معين، بشكل يعكس وجود علاقة بين هذا الاستخدام والمدلولات النفسية والاجتماعية، التي تدفع به إلى تغليب لون على آخر، أو تكراره بشكل يلفت النظر.

وعنترة - على سبيل المثال - كان يعيش صراعاً مع قبيلته من خلال مأساة اللون، التي جعلت منه شخصاً منبوذا في مجتمعه، غير مرغوب فيه عند أقرب الناس إليه، وقد حاول الخروج من واقعه الصعب. أو الدائرة الضيقة من حوله، إلى نوع من التوازن، يعيد إليه احترامه، فجاء حديثه عن اللون وفق أولوية نفسية، تفرض عليه أن يجعل منه محور حديثه وجوهر عمله. وكنا نتوقع أن يتجنب الشاعر الحديث عن اللون وبخاصة الأسود، أو أن يتجاهله، حتى لايعيش تحت وطأة عقدة النقص التي يواجهها من خلال السواد الذي يكسوه، ولكنه فعل عكس ذلك فدفع باللون الأسود، ليكون اللون البارز من بين الألوان التي استخدمها في شعره، وهو بذلك يريد أن يواجه المشكلة لا أن يتجاهلها لأنه يعرف - من خلال قدراته الفنية - أنه يستطيع أن يتغلب على المشكلة، التي يعرض لها، وأن ينتصر فيها، وهذا يعكس التحدي الواضح للواقع الاجتماعي، والقيم السائدة، ولاغرابة بعد ذلك أن يلح الشاعر على اللون الأسود، في محاولة منه لإظهار مشكلته، وإثبات قدرته على مواجهتها، والانتصار فيها، فهو ينتقل باللون من نقصه الظاهر في عيون الناس، إلى كماله الباطن في تجلياته المعنوية، ومن كونه مصدر سخرية وازدراء وفق قيم اجتماعية سائدة، إلى مصدر قوة وعطاء، في سلوكه اليومي وممارساته على أرض الواقع "لذلك فإن من عابوا على عنترة سواد لونه، إنما يشعرون بمركب نقص خبيث فقد بهرتهم شجاعته، وهالهم فتاؤه ومضاؤه، وسعة حيلته في الحرب، وفتكه في ميادين الشرف والفخار، فحاولوا أن يشعروه نقصا، وأن يقللوا من أهميته، ولم يعرفوا أنهم بذلك قد زادوه مضياً في إدراك المجد، وحفزوه على السير قدماً في اكتساب محامد جديدة ومناقب حميدة"[٢].

واللون الأسود بالنسبة لعنترة مشكلة متأصلة في حياته الخاصة والعامة، يعاني منه كما يعاني غيره، لأنه من "أولاد الإماء السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم، فقد كانوا سبة يعير بهم آباؤهم. ومرد ذلك من غير شك إلى ظاهرة اللون، فقد كان العرب يبغضون اللون الأسود بقدر ما يحبون اللون الأبيض، وقد

وصفوا كل شيء ممدوح عندهم مادياً أو معنوياً بالبياض، وكان مما يمدح به الرجل أو يفتخر به أنه أبيض»[٣] وكانت المرأة تُمدح بالبياض وكذلك الرجل، والبياض ليس مجرد لون، وإنما يرتبط في المفهوم العام بنتاء العرض «إذا قالت العرب فلان أبيض وفلانة بيضاء، فالمعنى نقاء العرض من الدنس والعيوب»[٤] وورد البياض بهذا المعنى في مدح زهير بن أبي سلمى:

أُمَّكَ بيضاءُ من قضاعةَ في الـ بيتِ الذي تستظل في طُنُبِهْ

وهذا كثير في شعرهم، لايريدون به بياض اللون، ولكنهم يريدون المدح بالكرم ونقاء العرض من العيوب»[٥]. وهذا لايعني أن مفهوم البياض يتنافى مع حسية المعنى المقصود، فقد ورد في الشعر العربي تشبيه وجه الممدوح بالشمس والقمر، والذهب والدينار، وغير ذلك من المعاني التي تعكس استخداماً حسياً لمعنى البياض في شعرهم. وتتبع الألوان في شعر عنترة لايعني مجرد لون من خلال حاسة البصر، وإنما يتجاوز ذلك إلى إدراك علاقات اجتماعية وإنسانية، تفرض نفسها على خيال الشاعر من خلال إحساسه الذاتي باللون، وهذا يشكل مستوى أعمق في فهم اللون من مجرد إحساس ظاهري يربط البلون بالعالم الخارجي، مما يعني رفض فكرة أن يحمل اللون مجرد دلالة معجمية مباشرة» وثم تصور شائع يقوم على توظيف كلمات اللون (Colour - Words) في مستواها المعجمي؛ وهو لاشك تصور خاطيء؛ لأنه يغفل القيم الصوتية والإيقاعية لهذه الكلمات في موقعها من سياقها النصي، فهذه الكلمات تمثل منظومة بصرية، وسمعية، وعاطفية معقدة، وهكذا فإن الدافع الحقيقي لهذا التوظيف لاينبغي أن يكون مرئياً»[٦].

وتبدو دراسة الألوان في شعر عنترة أمراً معقداً، بسبب ارتباط هذا الموضوع بدلالات نفسية وجتماعية، تعكس علاقات غير محددة في اتجاهين متضادين، أحدهما يتعامل مع اللون وفق ظواهر شكلية نمطية، والآخر يتعامل معه وفق رؤى

شعرية، وقيم إنسانية، ومما يزيد الأمر صعوبة ندرة الدراسات التي تناولت طبائع الألوان عند الجاهليين عموماً وعند الشعراء خصوصاً؛ فنحن لاندري دراية كاملة ما إذا كان المعنى اللغوي لظواهر الألوان قد تطور عبر المراحل الحضارية التي مر بها المجتمع العربي، أم أنه احتفظ بأصل مواضعته الأولى. "[٧] وسواء تطور مدلول اللون اللغوي أم لم يتطور، فإن موقف المجتمع الجاهلي منه كان سلبياً، وانعكس ذلك بشكل واضح على علاقة هؤلاء السود بمجتمعهم من ناحية، وعلاقاتهم الأسرية من ناحية أخرى" ومن هنا أطلقوا على هؤلاء السود اسماً خاصاً تمييزاً لهم من سائر أخوانهم الهجناء، فسموهم (الأغربة) تشبيهاً لهم بذلك الطائر البغيض المشئوم في لونه الأسود، ونسبوهم في أكثر الحالات إلى أمهاتهم. ويخرج هؤلاء (الأغربة) إلى الحياة وقد وسمتهم الطبيعة بذلك اللون الذي يبغضه مجتمعهم، والذي لايد لهم فيه، ولاخروج لهم منه، فإذا هو يحول منذ البدء دون أن يعترف بهم آباؤهم "[٨]، وتبدو مهمة عنترة في هذا المجال صعبة، لأنه يريد أن يقاوم المفاهيم السلبية السائدة في مجتمعه عن اللون الأسود، ويحقق من خلال قدراته الفنية والشخصية مفاهيم إيجابية، تتيح له أن يندمج في المجتمع، ويمارس دوره الطبيعي فيه، واللون الأسود إلى جانب رفضه اجتماعياً، لارتباط صاحبه بنسب غير مقبول، يرتبط عند العرب بمظاهر نفسية منفرة، كالحداد ومايصاحبه من حزن وكآبة.

عقدة اللون بين الشكل والجوهر:

عند مراجعة ديوان عنترة، يلاحظ الدارس توارد اللونين الأسود والأبيض بشكل يلفت النظر، ومن خلال احصائية بسيطة للألوان الواردة عنده، نجد أن اللون الأسود ورد في أربعة وستين موضعاً، والأبيض في واحد وستين موضعاً، والأحمر في خمسة مواضع.

ويأتي إلحاح الشاعر على ذكر اللونين (الأسود والأبيض) - أما مقترنا أحدهما مع الآخر أو منفصلا عنه - لعلاقة - ما - بينهما وبين عقدة التوافق النفسي

والاجتماعي التي كان يعيشها الشاعر مع أسرته وقبيلته، وقد حاول الشاعر أن يحمل هذين اللونين - على مستوى ذكره لهما وتساوي ورودها في شعره - دلالة تعكس تساوي الأمر بالنسبة له.

ولما كان السواد بحاجة إلى نقيضه لإظهاره، فقد أورد الشاعر اللون الأبيض معادلاً - على مستوى الشكل - له، ولكن اللون الأبيض لم يكن بحاجة إلى الدفاع عنه، كما هو الحال بالنسبة للون الأسود؛ لأن البياض يعني الإيجابية في المفهوم الاجتماعي، والاتهام يكون للون الأسود، من هنا جاء دفاع الشاعر عنه، ومحاولة تقديمه من خلال تجاهل الناحية الشكلية فيه، وتنمية دلالات معنوية مستمدة من حقائق وقرائن يثبتها الواقع. فالمسك الذي هو من أطايب الروائح عند العرب، يقترن لونه بالسواد، ولايمكن مع ذلك أن يوصف بالقبح، أو أن يواجه بالذم. وعنترة يشترك مع المسك في هذه الصفة التي تجعل منه إنسانا غير قابل للذم أو القدح.

لئن أك أسـوداً فـالمسكُ لوني ... ومـالسـواد جلدي من دواء (٩)

فالشاعر يضع المسك قرينا مادياً لسواده، ويجعل السواد أمرا شكلياً ينسبه إلى جلده بما تعنيه كلمة (جلدي) من قشور خارجية لاصلة لها بداخل الشاعر، وهو أمر وجد الشاعر فيه مخرجاً مؤقتاً، ولكنه ليس وحيداً على مستوى عملية الإقناع التي يقوم بها، والتي تحتاج إلى وسائل عدة، مما يجعله يكرر المعنى، ويلح عليه مقترنا بمعان أخرى، تضع مفارقات واضحة بين أمور الشكل التي ينظر إليها الناس، والجوهر الذي يحاول الشاعر طرحه من خلال (دبلوماسية) هادئة تطرح الحقائق وتقارن بين الأمور:

وإن كـان جلدي يُرى أسْـودا ... فَلي في المكارم عِـزٌّ ورُتْبَـة (١٠)

فالسواد لايتنافى مع المكارم والأخلاق، والشاعر يحاول أن يتعمق في فهمه للأمور ويتعامل معها وفق مفهوم إنساني، فالسواد الذي يلازمه لايمكن الهروب منه، ولكن يمكن تغيير مفهوم الناس عنه، وهو يقدم نفسه على أنه رجل حكمة وعقل، لارجل جدل وعنف، ويحاول من خلال مفاهيمه أن يقنع الناس بوجهة نظره لا أن يفرضها عليهم.

فالإنسان - من وجهة نظره - لايمكن التعامل معه وفق لونه أو شكله، وإنما وفق أفعاله، ومن هنا تبدو المفارقة واضحة بين الشكل والجوهر، وهي مفارقة أكدها الشاعر من خلال حديثه عن اللون وعلاقته بالقيم المعنوية، وقد ساعده ذلك في أن يحول الجانب السلبي في السواد، إلى جانب إيجابي من خلال مجموعة القيم التي لاتتعارض مع اللون الأسود، وقد جمع الشاعر بينها في شعره، ليؤكد وجودها على مستوى الواقع أيضاً، وانتهى من ذلك إلى نتيجة إيجابية تمكنه من الانتساب إلى لونه الأسود دون حرج، لأنه يرى فيه مصدر قوة وشجاعة يفتقدها الآخرون، الذين ينتسبون إلى أصول لاعلاقة لها باللون الأسود.

لئن يعيبوا سَوادي فهو لي نسبٌ ... يومَ النزال إذا ما فاتني النسب(١١)

فالسواد بالنسبة للشاعر لايشكل مشكلة، وإن كان يعد مشكلة في مجتمعه، وهو يحاول من خلال قوتين يمتلكهما أن يعدل الموازين القائمة بين فهمه، وفهم مجتمعه لفكرة السواد، القوة الأولى: شعره، والثانية: شجاعته، وقد تضافرت القوتان بشكل إيجابي في تحقيق هدفه، فهو من خلال الشعر يقيم الدليل والحجة على صحة مايقول، ويؤكد ذلك من خلال ممارسات على أرض الواقع، يظهر فيها بطلا صاحب خلق ومباديء لايعيبها أحد:

وما عابَ الزمانُ عليَّ لوني ... ولا حط السوادُ رفيعَ قدري

إذا ذكـــر الفَـــخـــارُ بأرضِ قـــومٍ فضربُ السيفِ في الهيجاءِ فَخْرِي[١٢]

وهذا التضاد بين مفهوم الشاعر الإيحابي للون الأسود، والمفهوم السلبي السائد عنه، جعله يجمع اللون الأسود مع ضده الأبيض، ليزيد الفكرة وضوحاً وترسيخاً في الذهن، فإذا كان البياض يعني الخير والشجاعة وصحة النسب، وفق مفهوم إيجابي، فإن السواد الذي يعيبه الآخرون، هو البياض بعينه، كما يفهمه هو من وجهة نظر مرتبطة بالقيم والأخلاق، وهو بذلك يجرد اللون من محتواه الحسي السلبي إلى أخلاقي إيجابي:

ســوادي بيــاضٌ حين تبـدو شَـمـائلي وفعلي على الأنساب يَزْهو ويفخـر[١٣]

فالشاعر يتعمق في نظرته إلى اللون، بحيث يخرجه من دائرة المحسوسات إلى دائرة المعقولات، فالسواد في منظوره الفني ليس مجرد لون، وإنما هو قيم وأخلاق، يتحول فيها السواد إلى بياض، أو يمتزج الضدان معا في مفهوم أخلاقي جديد، يتجاوز ظاهر الأشياء إلى جوهرها. ولاغرابة بعد ذلك إذا كان السواد الذي يعاب به، هو مصدر فخره، لأنه يصبح في منظوره الخاص البياض الذي يعني له القوة والشجاعة:

وإن عــابت ســوادي فـهــو فـخـري لأني فـــارسٌ من نَسلِ حَـــامِ[١٤]

وإذا كان السواد عيباً يعير به الشاعر من أعدائه، فإن هذا السواد يتحول إلى الضد على مستوى الشكل والعمل، ففضائل الشاعر وأفعاله لاتمحو السواد الذي يكسوه، وإنما تزيل المفاهيم السلبية عنه:

تُعيرني العِدا بسوادِ جلدي ... وبيضُ خصائلي تمحو السوادا[١٥]

فخصال عنترة وأفعاله الإيجابية، تبعد عنه مايلحق بالسواد من عيوب، فلايجرؤ أحد من الناس أن يعيبه بسواد لونه، لأنه سيواجه ببياض أفعاله:

ومن قال إني أسْوَدُ ليعيبَني ... أُريه بفعلي أنه أكذبُ الناسِ[١٦]

فالشاعر يبتعد باللون عن طبيعته المألوفة لدى الناس، إلى استخدامات شعرية جديدة، تربط اللون بدلالات إيجابية في حياته وحياة الناس، مما يعكس قدرته على اختيار لغته، بشكل يتيح له أن يتجاوز ما هو متعارف عليه، إلى أنماط جديدة من التعبير، تضع اللون الأسود في دائرة الاهتمام الخاص والعام، للوصول إلى مستوى جديد من الفهم، في إطار واقع اجتماعي جديد، يحاول الشاعر صياغته. وهو في كل ذلك يعتمد أسلوب المنطق والحوار الهادئ، فيبدأ بمقدمات صحيحة لينتهي إلى نتائج صحيحة مقنعة، فاللون الأبيض في عالم الحس مقدمة لظهور النور، والنور يرتبط بالسواد بداية ونهاية، والنتيجة في ذلك أن السواد الذي هو لون الشاعر يقود إلى فضائل بيض كما يقود السواد في الليل إلى نور الفجر:

يَعيبون لوني بالسوادِ جَهالةً ... ولولا سواد الليل ماطلع الفجرُ

وأن كان لوني أسوداً فخصائلي ... بياضٌ ومن كفّيَّ يستنزلُ القطرُ[١٧]

فالشاعر يحاول من خلال تناقضات الفكرة القائمة بين ظاهر الشيء، وقيمه المعنوية، أن يركز على الجانب الآخر الذي يتصل بالقيم والمفاهيم، التي يمكن من خلالها الوصول إلى مايريد، وهي دعوة صريحة من الشاعر لترك ماهو ظاهر،

والتركيز على الجوهر، مستمداً الدليل على صدق ما يقول من الطبيعة القريبة من الإنسان، فالدر يغطيه ثوب من الصدف يخفي جماله، ولكنه لايقلل من قيمته، تماماً كما هو الحال بالنسبة للشاعر الذي يغطيه السواد، ولكنه لايقلل من القيم المعنوية والخلقية التي يحتفظ بها خلف هذا السواد:

وأن يعيبوا سواداً قد كسيتُ به ... فالدُّرُّ يسترهُ ثوبٌ من الصَّدفِ[٨]

وقد تعزز هذا الأسلوب في محاور كثيرة تحدث فيها الشاعر عن مفهوم جديد للون الأسود، وقدم له بمقدمات منطقية صحيحة لايمكن الجدل فيها، لينتهي إلى النتائج التي يريدها في إطار من المعادلات المنطقية، دون أن يثقل على الشعر، أو ينحرف به إلى أسلوب جدلي عقيم، واستطاع بذلك أن يقدم الحجة، وأن يقيم الدليل من غير تكرار أو إسهاب في الشرح، ويمكن ملاحظة ذلك في بعض نماذج من شعره اعتمد فيها هذا الأسلوب:

فالمسك لونه أسود	(مقدمة) لم يتحدث فيها الشاعر عن موقف الناس من المسك، أو علاقتهم به، لأن المقدمة صحيحة ولاتحتاج إلى إثبات.
الشاعر لونه أسود	(نتيجة) لم يشرح العلاقة، وإنما ترك الناس يستنتجون مايريد من خلال العلاقة القائمة بين المقدمة والنتيجة
الفجر يرتبط بسواد الليل	(مقدمة) صحيحة لاتحتاج إلى إثبات، لأن الليل يعقبه الفجر

خصالة البيض ترتبط بسواده	(نتيجة) تعتمد على المقدمة، فسواد لون الشاعر لايمنع ارتباط هذا السواد بخصال حميدة (بيض).
الدر (الجوهر) يغطيه الصدف	(مقدمة) صحيحة لا تحتاج إلى إثبات، لأن الصدف قشور خارجية تغطي الدر
القيم (الجوهر) يغطيها السواد	(نتيجة) تعتمد في صحتها على صحة المقدمة التي تثبت عدم وجود معارضة بين جوهر من القيم (كالدر)، وظاهر من السواد (كالصدف)

وفي كل ماسبق، يعتمد عنترة أسلوب الحوار والمنطق للوصول إلى مايريد، فهو رجل مبادئ وخلق لايريد أن يفرض رأيه على الآخرين، وإنما يريد أن يقنعهم بوجهة نظره، وهو يرى أن الفروسية يجب أن تصاحبها قيم وأخلاق تدعم من مكانة صاحبها، وتقربه إلى الناس "والذي لاشك فيه أنه كان على خلق عظيم، وأنه كان يجمع إلى فروسيته المادية فروسية معنوية أوخلقية". [١٩] ويبدو أن الشاعر قد جمع هذه القيم من خلال معاناته في قومه، فقد قوبل بالاضطهاد والإذلال، مما جعله يشعر بمأساة اللون في مجتمعه، فحاول أن ينتقل به من ظاهرة سلبية، إلى ظاهرة إيجابية تظهر صفات خلقية، وقيماً اجتماعية، لا توجد عند من هم في غير لونه، "لأن عنترة فيما يظهر قد كان حلو النفس، رقيق القلب، قوي العاطفة، جاءه ذلك من أنه عز بعد ذلة، وتحرر بعد رق، فهو قد تألم في طفولته وصباه، واحتمل الأذى في شبابه وأي أذى! هذا الذل يداخل النفس، ويختلط بها اختلاطاً، فيصفي عواطفها تصفية، ويلطف مزاجها تلطيفاً." [٢٠]

وكان من الممكن أن يمارس عنترة من خلال شجاعته وفروسيته، ضغوطاً على قومه ليعترفوا بما يريد مع سواد لونه، ولكنه يرفض هذا الأسلوب، ويسمو

بنفسه إلى واقع من المثل والأخلاق. يجعل الناس يعترفون بفضله دون أن يرهبهم، فهذه الفروسية لم تحول عنترة إلى طاغية، وإنما جعلته يمارس دوراً مميزاً، يقيم أسساً للعدالة الاجتماعية التي تساوي بين الناس على أساس أعمالهم ومواقفهم وإنسانيتهم، وليس من خلال لونهم أو شكلهم، "ولابد أن نلاحظ بصفة عامة أن الفروسية الجاهلية بعثت في نفوس أصحابنا ضرباً من التسامي والإحساس بالمروءة الكاملة، فإذا هم يتغنون دائماً بمجموعة من الفضائل والخصال الحميدة."[٢١].

دلالة اللون من خلال علاقة الشاعر مع المرأة

الحديث عن اللون في شعر عنترة يقودنا إلى الحديث عن علاقة اللون من خلال علاقة الشاعر بالمرأة، فقد كانت المرأة بالنسبة له جزءاً لايتجزأ في صراعه مع أسرته وقبيلته، ومثل اللون الأسود بؤرة الصراع بين الشاعر وصاحبته من ناحية، والشاعر والمجتمع من ناحية أخرى.

وكانت صاحبة عنترة تواجه في علاقتها معه أمرين صعبين: أولهما نظرة المجتمع إلى السواد في الرجل الذي تحبه، وهي نظرة استهجان ورفض، وثانيهما حب الشاعر لها، ومحاولته إقناعها بقبوله وفق مفهومه الخاص عن السواد، وهو مفهوم إيجابي مغاير للمفهوم السلبي السائد في مجتمعه.

وكانت محاولات عنترة لاسترضاء صاحبته، وإقناعها بوجهة نظره، أسهل عليه من تلك التي بذلها مع مجتمعه، لأن عبلة كانت تحبه، وتعترف بإنسانيته ومشاعره، وهي بذلك تتغاضى عن الأمور الشكلية، وتتعامل معه وفق جوهره الداخلي، وهذا ماكان يريده عنترة ويسعى إليه، فقد حاول جاهداً أن يلفت الناس إلى القيم الأخلاقية فيه، والمشاعر الإنسانية التي يتحلى بها، وجاء الأمر سهلاً مع صاحبته التي رأت فيه إنساناً يستحق الاحترام، وهو في المقابل يطمئنها إلى أن سواد شكله لايجر عليها عاراً، لأنه مقرون بما تريد منه، ولهذا يقول لها بلهجة الواثق من نفسه، ومن أفضليته:

وأنْ أبصرتِ مثلي فاهْجريني ولا يَلْحَقْكِ عارٌ من سوادي[٢٢]

ولعل عنترة بحاجة إلى أن يقنع صاحبته بالرضا عن سواده، ويكسب رضاها عليه، وإن لم يكن بحاجة إلى إقناعها بصدق مشاعره ونبل أخلاقه:

لعلَّ عبلةَ تُضْحِي وهي راضيةٌ على سَوَادِي وتمحو صُورةَ الغَضَبِ[٢٣]

ويجعل الشاعر من حبة السواد في قلبه مكاناً لصاحبته، وهو بذلك يجمع بينها وبين مصدر الحب في قلبه، ليمحو الأثر السلبي للسواد في علاقته معها، ويثبت لها من خلال أسلوبه المنطقي، أن السواد الظاهري الذي يرفضه الناس، هو نفسه الذي يأتي منه الحب:

ياعبل أنتِ سوادُ القلبِ فاحتكمي في مهجتي واعدلي ياغايةَ الأمل[٢٤]

وكما تلتقي مع سواد القلب تلتقي مع سواد العين[٢٥]. وهو بذلك يجمع بين صاحبته والسواد الذي في عينيه وفي قلبه، ومن خلال علاقة إيجابية، توحد بينهم، وتجعل السواد شيئاً محبباً على خلاف ظاهر الأشياء.

والمعادلة بين سواد العين، وسواد القلب، وصاحبة الشاعر، واضحة لإنها تجمع بين متناقضات يجمعها ظاهر مرفوض وهو (السواد) وباطن مقبول وهو (العين - القلب - الحب)، وحاول الشاعر من خلال هذه المعادلة بين المرفوض

والمقبول، أن يرسخ علاقته مع صاحبته، من خلال علاقة توحد، تجمع بين المرأة والعين بما فيها من سواد ورؤية، والقلب ومافيه من سواد وحب.

وهو بذلك يريد التأكيد على أن اللون لايشكل بذاته ظاهرة سلبية أو إيجابية، وإنما تأتي سلبيته أو إيجابية من خلال مايقدم للآخرين من منافع أو مضار، فالسواد يجمع بين الخير والشر، كما يجمع البياض أيضاً بين الخير والشر، وقد يكون الشاعر متعاطفاً - إلى حد ما - مع اللون الأسود لاعتبارات لايمكن تجاهلها، وقد نلتمس العذر له في ذلك، فهو يواجه مصيره من خلال علاقته بهذا اللون؛ وهو لذلك يركز على إيجابياته، ولكنه يفعل ذلك من خلال فلسفة قائمة على الإقناع، فالسواد - كما يراه - رمز الشباب والقوة، والبياض رمز الشيخوخة والعجز، والأمر لايتعلق بمجرد نظرة شكلية عابرة، وإنما يرتبط بقضايا معنوية، فالرأي يقابل الشباب والشيخوخة في قوتهما وضعفهما، يكون أسود اللون عندما يكون صاحبه قوياً، ويتحول إلى البياض عندما يمسي صاحبه ضعيفاً:

شابَ رأسي فصارَ أبيضَ لوناً بعدما كان حالكاً بالسوادِ[٢٦]

وهنا يظهر عنصر التضاد حاداً بين اللونين وعلاقتهما بالشاعر، فالبياض يقابل الشيخوخة التي يضعف فيها الرأي، والسواد يقابل الشباب الذي يقوي فيه الرأي، وهو بذلك يحول (السلبي) في مفهوم الناس إلى مفهوم (إيجابي) وفق حقائق وقرائن لايمكن إنكارها، ويحول (الإيجابي) في مفهوم الناس إلى مفهوم (سلبي) وفق القرائن والأحوال ذاتها.

البياض (شيء إيجابي) يقابل ====== الشيخوخة (شيء سلبي)

السواد (شئ سلبي) يقابل ====== الشباب (شئ إجابي)

والشاعر من خلال هذه الرؤية التي تقوم على التحليل والمنطق، يحاول إقناع سامعيه بأنه لايتعامل مع الألوان، من خلال نظرة أحادية تفضل لوناً على آخر،

دون إعتبارات موضوعية، فإذا كان السواد مقبولاً لأنه يقترن بأشياء تجعل منه مصدر فخر، فإن السواد الذي في الغراب، لايمكن تحويله إلى ظاهرة إيجابية، تجعل من الغراب عنترة، كما لايجعل السواد من عنترة غراباً:

ياعبل كم يُشْجَي فؤادي بالنَّوى ... وَيَروُعني صوتُ الغرابِ الأسودِ[٢٧]

فالسواد ليس مادة أثيرة عند الشاعر يعجب بها في كل الأحوال والمواقف، فهو يرفض أقواماً سود الوجوه، لأن فعالهم تماثل سواد وجوههم:

ليسوا كأقوام علمتَهمُ ... سُود الوجوه كمَعْدنِ البرم[٢٨]

والشاعر في كل ذلك، يقدم نفسه على أنه إنسان جدير بالحب والاحترام، ويحاول أن يمهد الطريق أمام صاحبته للوصول إليه، دون حرج من هذا العلاقة التي تقابل بالرفض والإنكار، وفق قيم اجتماعية سائدة، يحاول الشاعر تغييرها معتمداً أسلوب الحوار والإقناع.

دلالة اللون في علاقته مع السلاح والطبيعة:

جاء حديث عنترة عن اللون مقترناً بجوانب مختلفة من حياته، فالسلاح الذي يحمله له علاقة مباشرة في الدفاع عن اللون الأسود، وهو يربط ذلك من خلال ثنائية قائمة بين الألوان من ناحية، وعلاقتها بالأشياء التي تخصه من ناحية أخرى، فإذا كان غيره يعشق البيض من النساء، فإنه يعشق السمر العوالي:

وتطربني سيوفُ الهند حتى ... أهيمُ إلى مضاربها اشتياقاً
وأني أعشقُ السُّمْرَ العوالي ... وغيري يعشقُ البيضَ الرشاقا[٢٩]

ولايتنافى حديثه - هنا - عن حديثه السابق عن المرأة لأن عنترة من شعراء الغزل العذري في العصر الجاهلي، يؤمن بالتوحيد، وهو لذلك لايشغل نفسه بالبيض من النساء، لأن هذا يدفع به إلى اتجاه مغاير للشجاعة التي يتحلى بها، ويريد تأكيدها من خلال علاقته (بالمرأة المفردة) من ناحية، (والسلاح) الذي يحمله من ناحية أخرى.

والشاعر لايعشق السواد في السلاح، وإنما يعشق السلاح ذاته أيا كان لونه، فالبياض في السلاح يغريه كما يغريه السواد فيه:

وبوارق البيض الرقاقِ لوامعٌ ... في عارضٍ مثل الغَمام المُرعدِ
ونوابلُ السُّمْرِ الدقاقِ كأنها ... تحتَ القتام نجومُ ليلٍ أسودِ[٣٠]

فالرماح لايعيبها السواد، كما لايعيب السيوف بياضها، ورؤية الشاعر تقوم - هنا - على اعتبارات معنوية، بدأ الشاعر بتطبيقها على نفسه أولاً، ثم امتد بها إلى الأشياء المحيطة به، ولها علاقة مباشرة معه، كالسلاح الذي يلازمه، ويؤثر على مجمل علاقاته على مستوى الأفراد والجماعة.

ووفق هذه الرؤية التي اعتمدها الشاعر، نجد التضاد الحاد بين اللونين الأبيض والأسود، يتحول إلى نوع من التقارب والالتقاء في سلاح الشاعر الذي يجمع بين البياض في السيف، والسواد في الرمح، وقد ركز الشاعر على البياض في معرض حديثه عن السيوف، لإظهار قيمة هذا اللون من خلال الدور الذي يؤديه، أو المعنى الذي يحمله. فالبياض الذي هو نقيض السواد في شكل الشاعر، يتضافر مع سواد رمحه، ليحقق ازدواجية قائمة بين الشيء الذي يفتقده (البياض) والشيء الذي يمتلكه وهو (السواد)، وصولاً إلى عنصر الشجاعة الذي يتميز به عن غيره. وقد جاء هذا التميز من خلال اجتماع الضدين (السواد والبياض) وهو بذلك يؤكد

حقيقة توحد المتناقضات في علاقة إيجابية فاعلة، يتمثلها الشاعر في منظور فني أوسع وأعمق، يجمع بين السواد والبياض في عنصر إيجابي واحد وهو (السلاح) الذي يحمله، ويدافع به عن القبيلة التي تريد أن تفصل بين اللونين، وتجعل لأحدهما فضلاً على الآخر.

ولاغرابة بعد ذلك أن يشد الشاعر نسبة إلى سلاحه الأسود، بما يحمل هذا الانتساب من دلالات معنوية، تعزز السواد القائم في شكله:

ولسمر القنا إلى انتساب وجوادي إذا دعاني أجيب[٣١]

ويجمع بين السيف والرمح، في تعزيز مصدر قوته، التي بها يهزم الأعداء:

كم جحفل مثل الضباب هزمته بمهند ماض ورمح أسمر[٣٢]

ومادامت البيض من السيوف، والسمر من الرماح تلتقي في منظور الشاعر الفني، حول قيمتها الاجتماعية، ووظيفتها في المعركة، فإن الفارق بين اللونين يتلاشى، والتناقض الشكلي القائم بينهما يختفي، فالسواد لايختلف عن البياض في تحقيق غايات الشاعر، والوصول إلى مايريد، وكذلك تحقيق غايات القبيلة التي ينتمي إليها، فلا أفضلية للون على آخر، مادام الأمر بالنسبة له ولقبيلته، يأتي بنتيجة واحدة، وهو لذلك يكثر من الجمع بين هذين اللونين بخاصة في حديثه عن السلاح الذي يحقق هذا الغرض، ويمكن ملاحظة ذلك في كثير من أبيات شعره، من مثل قوله:

بأسمر من رماح الخط لدن وأبيض صارم ذكر يمان[٣٣]

ويجاور بين اللفظين (بيض وسمر) لتأكيد العلاقة بينهما على مستوى الشكل والمضمون:

بيض وسمر تحمي مضاربها أساد غاب بالبيض والسمر[٣٤]

ويجمع بين هذين اللونين في مواقف أخرى من المعركة، ليظهر مدى إيجابيتهما، فالسواد يأتي عنصراً إيجابياً، يؤازره في كثير من المواقف والأحوال التي تواجهه:

ياعبل كم من جحفل فرقته والجو أسود والجبال تميد[٣٥]

وسواد الليل يجد فيه الشاعر وقتاً مناسباً لغاراته التي يحقق فيها النصر على أعدائه:

ولقد هممت بغارة في ليلة سوداء حالكة كلون الأدلم[٣٦]

فالسواد يتمثل أمامه عنصراً إيجابياً في غبار المعركة، وظلام الليل، ويراه كذلك في وجوه الخيل التي تشاركه أهوال القتال، وتخوض معه غمار الحرب:

والخيلُ سودُ الوجوه كالحةٌ تخوضُ بحرَ الهلاكِ والخَطَرِ[٣٧]

والشاعر بذلك يسقط مافي نفسه على جو المعركة، ويجعل السواد عنصراً إيجابياً يوظفه لصالحه، كأنه بذلك يريد أن يحطم القيود التي يتعامل بها الناس مع اللون الأسود، ويسقط نظرية المفهوم النفسي للألوان، وفق اعتبارات اجتماعية سائدة، لا علاقة لها بالحقائق التي يثبتها الشاعر، ويريد من خلال أسلوبه المنطقي إقناع الناس بها.

فالسواد ظاهرة إيجابية تؤازر الشاعر من خلال عناصر لها مباشرة به كالليل والمعركة والخيل، والرمح . . . وهي تتضافر مع قيمة الإنسانية الداخلية التي يتحلى

بها، وتجعل منه إنساناً مميزاً في قومه، وعلاقاته بالأشياء المحيطة به، وتنعكس - بالتالي - بشكل إيجابي على مجمل علاقاته الاجتماعية.

الدلالة المباشرة للون الأحمر في شعره:

يأتي حديث الشاعر عن اللون الأحمر بشكل أقل من حيث الكم والأهمية، مقارنة مع اللونين الرئيسين اللذين تحدث عنهما في شعره، وهما الأسود والأبيض، ويرد ذكر هذا اللون في معرض حديث الشاعر عن المعركة، ووصف شجاعته، ويرتبط عادة بدماء أعدائه الذين يضربهم وتسيل دماؤهم على سيفه الأبيض:

هزمت تميماً ثم جندلتُ كبشهم وعدت وسيفي من دم القوم أحمر[٣٨]

ويظهر الدم مرة أخرى في صورة الخضاب الذي يعلو الدروع، ويجعلها كالعقيق الأحمر:

ودماؤهم فوق الدروعِ تخضَّبتْ منها فصارَتْ كالعقيقِ الأحمرِ[٣٩]

وهو يتحدث عن قوته وقت اشتداد المعركة، عندما تجري الدماء على الأرض وتجعلها وردة كالدهان:

فإذا ما الأرضُ صارتْ وردةً مثل الدِّهانِ
والدما تجري عليها لونُها أحمرُ قانِي
اسْمِعاني نغمة الأسـ ـياف حتى تُطْرِباني
أطيبُ الأصواتِ عندي حُسْنُ صوت الهندُواني[٤٠]

ولايخفى علينا مايحمله اللون الأحمر من دلالات مباشرة تعكس قوة الشاعر وشجاعته، فقد ربط هذا اللون (مباشرة) بالدم الذي يسيل من الأعداء، وجعله يزين ثيابه وسلاحه، وأرض المعركة من حوله.

وجاء حديثه عن هذا اللون، من خلال حديثه المباشر عن المعارك التي خاضها، والهزائم التي إلحقها بأعدائه، فاللون الأحمر ارتبط بشكل مباشر بالمعارك، واستطاع الشاعر من خلال إبراز علاقته بالسلاح، أن يقدم الدليل المادي الملموس على شجاعته.

ويبدو عنترة غير متحمس للحديث عن هذا اللون، كما هو الحال مع اللونين الآخرين (الأبيض والأسود)، والسبب في ذلك يعود إلى أنه لايجد نفسه في موقف الدفاع عن أفضلية هذا اللون، أو ربطه بقيمة وظيفية على المستوى النفسي والاجتماعي، فاللون الأحمر يرتبط عادة عند العرب بصورة الدم، وهي صورة مقبولة عندما يكون الدم للأعداء، وغير مقبولة عندما يكون الدم منهم.

وعنترة لم يجد تعبيراً آخر للون غير المفهوم العام السائد عنه، ولكنه أراد من خلال تناقضات الألوان أن يجمع بينه وبين الأسود والأبيض، من خلال علاقته بالسلاح، ومايمكن أن يضيفه لون الدم إلى الشاعر من معاني الفروسية والشجاعة، كمظهر من مظاهر هذه الشجاعة، وهو لذلك لم يذكر الدم إلا في مواضع القتال، وخصَّه بدم الأعداء، كما يبدو بشكل واضح في النماذج الشعرية السابقة، ولا غرابة في ذلك إذ "تنحصر فلسفة المجد عند عنترة في مظاهر القوة والبطولة والفتك بالأعداء وإيرادهم موارد الهلكة والفناء، وهي فلسفة ليست بالغريبة على عنترة، بل إنها لتستمد أصولها من بيئته ونشأته، وتتفرع من جذور ووشائج قبلية"[٤١]

وإلى جانب الألوان التي ذكرها عنترة في شعره، وألح عليها بشكل واضح وردت ألوان أخرى تعد من حيث ورودها، واهتمام الشاعر بها أقل أهمية، مقارنة

مع الألوان: الأبيض والأسود والأحمر، فقد جاء ذكرها بشكل عفوي، لايعدو مجرد وصف للرماح، كما في قوله:

عـــوالِيَ زُرقـــاً من رمـــاح ردينةٍ هرير الكلاب يتَّـقين الأفـاعـيـا[٤٢]

أو لأثر الطعنة التي تصفر لها كف المطعون[٤٣] و وصف الفرس الأدهم[٤٤] والغراب الأسحم[٤٥] وهذه الألوان وغيرها لاتشكل مجالاً للدراسة أو التأويل، لأنها وصف مجرد عن المضامين التي تبلورت بشكل واضح في حديثه عن الألوان الرئيسية في شعره.

خاتمة البحث

فبعد متابعة بسيطة للألوان في شعر عنترة، نلاحظ أن الألوان عنده تتمحور حول: الأسود والأبيض والأحمر، وجاء اللون الأسود أكثر الألوان ذكراً في شعره، والسبب في ذلك يعود إلى خصوصية هذا اللون بالنسبة لعنترة، وعلاقته النفسية والاجتماعية به، وقد حاول الشاعر من خلال التركيز على هذا اللون، ومواجهة المشكلة الاجتماعية التي يتعرض لها، وهي مواجهة تعني أن حل المشكلة القائمة، لايكون تجاهلها، وإنما بعرضها للتغلب عليها، وإيجاد حل مناسب لها، يجعل من المشكلة أمراً لاأشكال فيه، وهنا لايمكن فرض رأيه بالقوة، أو محاربة الناس من أجل إقناعهم، وإنما يحتاج الأمر حكمة وروية، ورؤية عميقة تجعل الناس ينساقون - في نهاية الأمر - إلى رأيه، ويقتنعون به.

وقد استطاع عنترة أن يثبت ذاته في مجتمعه على المستويين الشخصي والاجتماعي، فهو صاحب قيم ومبادىء وأخلاق، تفرض احترامه على الناس، وتجعله إنساناً مؤهلاً لأن يعيش في مجتمعه، كما يعيش الآخرون.

الهوامش

١- عبدالرحمن، نصرت: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ط، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٧٦م، ص١٨٧.
٢- القرشي، حسن عبدالله: فارس بني عبس، ط دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية ١٩٦٩م. ص٦٤.
٣- خليف، يوسف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ط مكتبة غريب - مصر، ص١٠٤.
٤- لسان العرب، مادة بيض.
٥- المصدر السابق، مادة "بيض".
٦- دياب، محمد حافظ: جماليات اللون في القصيدة العربية، مجلة فصول، المجلد الخامس، العدد الثاني ١٩٨٥ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ص٤٤.
٧- عبدالمطلب، محمد: شاعرية الألوان عند امرئ القيس، مجلة فصول العدد السابق ص٥٧.
٨- خليف، يوسف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص١٠٥.
٩- شرح ديوان عنترة، ط دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، ص٨.
١٠- ديوانه، ص١٠. وانظر ص٥٠.
١١- ديوانه، ص١١.
١٢- ديوانه، ص٦٦.
١٣- ديوانه، ص٦٦.
١٤- ديوانه، ص١٣٨.
١٥- ديوانه، ص ص٤٦.
١٦- ديوانه، ص ٧٥.
١٧- ديوانه، ص٧٢.
١٨- ديوانه، ص٨٨.
١٩- ضيف، شوقي: العصر الجاهلي، ط دار المعارف، مصر، الطبعة العاشرة، ص٣٧١.
٢٠- حسين، طه: حديث الأربعاء، ط دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية عشرة، ص١٥٠.
٢١- ضيف، شوقي: العصر الجاهلي، ص٣٧١.
٢٢- ديوانه، ص٤٥.
٢٣- ديوانه، ص٢١.

٢٤- ديوانه، ص١٠٩.
٢٥- انظر ديوانه، ص١٠٩.
٢٦- ديوانه، ص٥٤.
٢٧- ديوانه، ص٥٥.
٢٨- ديوانه، ص١٣٨، البرم: قدور من الحجارة، أي وجوههم في السواد مثل موضع القدور على النار.
٢٩- ديوانه، ص٩٤.
٣٠- ديوانه، ص٥٧.
٣١- ديوانه، ص٢٠.
٣٢- ديوانه، ص٧٠.
٣٣- ديوانه، ص١٤٦، وانظر.
٣٤- ديوانه، ص٢٢، وانظر ٧٣-٤٢.
٣٥- ديوانه، ص٥٣.
٣٦- ديوانه، ص١٢٦، الأدلم من الألوان: الشديد السواد.
٣٧- ديوانه، ص٧٣.
٣٨- ديوانه، ص٦٧.
٣٩- ديوانه، ص٧١.
٤٠- ديوانه، ص ١٤٠، ١٤١.
٤١- القرشي، حسن عبدالله: فارس بني عبس، ص٤٩.
٤٢- ديوانه، ص١٥٩، وانظر ص ١١٥.
٤٣- ديوانه، ص٨٩.
٤٤- ديوانه، ص١١٢.
٤٥- ديوانه، ص١١٩.